المقاربة النّسقية وتفسير الظّاهرة الاتصاليّة: قراءة نظرية مفاهيميّة

The systemic approach and the interpretation of the communicative phenomenon: conceptual theoretical reading

د(ة). هالة دغمان *

تاريخ الإرسال: 2022/08/21	تاريخ القبول: 2024/05/05	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

شهدت الظّاهرة الاتصالية اهتماما متزايدا في أوساط البيئات الأكاديمية والحياة اليومية، وأصبح من غير الممكن فصل الاتصال عن النّشاطات اليومية، حيث تحوّل الاتصال في ظرف سنوات قليلة إلى أحد الوظائف الأساسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسّياسية، وقد أصبح في المقدمة خاصة بعد القائمة الطويلة للأماكن الّتي اقتحمها شيئا فشيئا وبدرجات متفاوتة، وجعلت من غير الممكن الاستغناء عنه.

وهذا ما دفع الباحثين إلى الاهتمام بهذه الظّاهرة والسّعي المستمر في البحث فيها، وقد سمحت المقاربة النسقية لمختلف العلوم بإعطاء تصوّر شامل للظّاهرة الّتي تدرسها أو تبحث فيها، وحاولت وضع حل أو فهم للمشاكل أو التّعقيدات المتعلّقة بالظّاهرة ونشاطها، وبالتّالي فقد هدفنا من خلال هذه الورقة البحثيّة إلى تسليط الضّوء على إسهامات مدرسة بالو ألتو وانبثاق المقاربة النّسقية الّتي كان لها أثر كبير في تفسير العديد من الظّواهر الاتصالية.

الكلمات المفتاحية: المقاربة النّسقية، الظّاهرة الاتصالية، مدرسة بالو ألتو.

* جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة h.doghmane@univ-skikda.dz

Abstract:

The communicative phenomenon has witnessed an increasing interest in academic environments and daily life, and it has become impossible to separate communication from daily activities, as communication in a few years has turned into one of the basic functions of social, economic and political life, and it has come to the fore, especially after the long list of places it has broken into. Little by little and to varying degrees, it became irreplaceable. This is what prompted researchers to pay attention to this phenomenon and to strive continuously to research it, and the systemic approach of the various sciences allowed to give a comprehensive vision of the phenomenon that they study or research in, and tried to develop a solution or understanding of the problems or complexities related to the phenomenon and its activity, and therefore our goal through this research paper To shed light on the contributions of the Palo Alto School and the emergence of the systemic approach, which had a significant impact on the interpretation of many communicative phenomena.

***Key words**: Systematic approach, communicative phenomenon, Palo Alto School.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: د.هالة دغمان haladoghmane@gmail.com

1.مقدمة

إنّ حركة النّاس والأحوال والمعلومات تشترط مجموعة من العلاقات بين الأفراد تترجم عن طريق التّواصل، والّذي يضفي بدوره طبيعة العلاقات بينهم ويصبح مصدرا للتّفاعل الاجتماعي، حيث لا توجد جماعة دون تواصل، ولا حياة اجتماعية دون تواصل، كما يعتبر الاتصال عملية اجتماعية ضرورية لتبادل المعلومات والخبرات ونقل التّراث والحضارة من جيل إلى آخر لاستمرار الحياة الاجتماعية.

وتعتبر مدرسة بالو ألتو من أهم المدارس الّتي اهتمت بموضوع الاتصال وتخطّت المفهوم الضيّق له، والمنحصر في النّموذج الخطي، وأنّ كل سلوك إنساني يعتبر ذو قيمة اتصالية، بمعنى أنّ كل العلاقات يمن إدراكها كنسق واسع للاتصال في تفاعل متبادل.

وقد جاءت هذه المدرسة بإسهامات علمية ثريّة لتفسير التّغيّر والتّقلبات الّتي يعيشها العالم اليوم على جميع المستويات، ويصعب فيها فهم الظّواهر النّاتجة عنها وتفسيرها، نظرا لتداخل معطيات كل مستوى بمعطيات المستويات الأخرى.

وأصبح اكتساب المعرفة والإجابة المشروطة آنفا بتقليص المعطيات وتحليلها أمرا يفقد الظّاهرة معناها الحقيقي، ممّا دفع بالعلوم إلى البحث عن وسيلة لفهم المشاكل والتّعقيدات المتعلّقة بها وبنظام نشاطها، فظهر الفكر النّسقي في الخمسينيات كتصوّر شامل للظواهر أدّى إلى حدوث ثورة ابستيمولوجية لما فرضه من تحوّل رديكالي في شكل وطبيعة إدراك الواقع.

وتعتبر الظّاهرة نسقا مفتوحا على مجموعة من الأنساق الخارجية في تفاعل متبادل ومستمر، يصعب فيه التّنبؤ بما يؤوّل إليه هذا التّفاعل، والّذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالعوامل السّياقيّة المحيطة بالأنساق، فالسّياق هو المعلم الوحيد الكفيل بإضفاء المعنى على الظاهرة.

2. الاتصال والظّواهر الاتصالية

1.2. مفهوم الاتصال والتّفاعلات الاتصالية

إنّ البحث في تعريف الاتصال ليس أمرا هيّنا نظرا لكثرة الإشتغالات على هذا المفهوم منذ ما يقرب من خمسين سنة، الأمر الّذي جعله مفهوما مطاطيّا، ومكّنه من الحضور على مستوى العديد من العلوم والمقاربات، بدء بالاستخبارات وانتهاء بالعلوم الإنسانية وعلوم الإعلام.

لذلك كان على المشتغلين به أن يعملوا على تقريبه من ميدان انشغالهم لإضفاء الشّرعية العلمية عليه، وأيضا لجعله إجرائيا، وهذا ما ننوي القيام به بعد أن نستعرض مجموعة من التّعاريف.

حيث يعرفه الباحثان أونزيو ومارتان (Anzieu et Martin.JY) على أنه: "مجمل الميكانيزمات المادية والنّفسية الّتي تستخدم في التّواصل بين شخص أو عدّة أشخاص (المرسل) وشخص أو عدّة أشخاص (المستقبل) بغية الوصول إلى أهداف معينة."[1]

ويعرفه الباحث ديفيطو وآخرون (Devito, J.A et autres): "يحصل التواصل إذا بعثنا أو استقبلنا رسائل أو أعطينا معنى لإشارات شخص ما، ويتأثر التواصل دائما بالمشوشات، و يقوم داخل سياق، و له أثر ما و يتضمن إمكانية للرجع."[2]

أما في سنة 1979 فقد أضاف ملحق روبير الكبير (Grand Robert) تعريفا جديدا لمفهوم التواصل، وينص على أنّه: "فعل إيصال شيء إلى أحد ما" و "الشيء الذي نوصل" و"فعل التواصل مع أحد ما" و "تفويت شيء مهم لأحد ما".[3]

أما الباحث كوولي (Cooley, C) فيعرف التواصل على أنّه: "الميكانيزم الّذي تتواجد بواسطته العلاقات الإنسانية وتتطوّر، ويتضمن جميع رموز الفكر ووسائل إرسالها عن طريق مكان، وبتدعيم زمان، وأنّه يتضمّن تعبيرات الوجه، والاتجاهات، والحركات، ونبرات الصّوت والكلمات، والكتابات والمطبوعات، والتّلغراف والتّلفون، وكل ما يسير نحو إتمام اكتشافات الفضاء والزمن".[4]

في حين يرى الباحث المصطفى حدية أنّ: "التّواصل ظاهرة مركبة وضرورية، تشير إلى مجموعة أصناف التّواصل الإنساني، فهو يتغيّر تبعا للآليات المستخدمة لبلورته وتبعا للمواضيع المتتالية ..."[5]

وبالنسبة لارتباط التّواصل بدينامية الجماعة ترى رشيدة أفيلال "أنّ أهمية النّشاط التّواصلي تكمن في أنّ كل فعل اجتماعي يستند على مبدأ تبادل المعلومات، إمّا داخل إطار جماعة أو بين الجماعات، وأنّ التّواصل من حيث طبيعته الدينامية يمثل إحدى تعبيرات دينامية الجماعة، وأحد أشكال التّفاعلات الأكثر أهمية فيها".[6]

وفيما يخص ارتباط التّواصل بالتّعبير، يؤكد الباحث خليل أحمد خليل، أنّه "عند الإنسان تكون اللّغة هي النّاقل المميّز للاتصال الدّقيق، حيث يرتبط التّواصل هنا بالتّعبير (أي انتقال) المضمون التّعبيري بين فاعل وقابل، حيث يكون القابل فاعل آخر، وفي مستوى تخاطب الأنا مع الآخر تقوم علاقة مقبولة بين الطّرفين ، فكلّما كان التّعبير جديدا، غنيا، عاديا، كان الاتصال سهلا".[7]

ومن حيث ربط التّواصل بالثّقافة عرفه الباحث ونكين (Winkin , Y) بأنّه: "مجموع الأفعال الّتي تحرّك "البنيات" المؤسسة للمجتمع يوما عن يوم، بمعنى ثقافته، أنّها مجموع تحيينات الثّقافة في الألف وواحد من حركات الحياة اليومية".[8]

ولما اعتبر التّواصل سلوكا مثيرا قال الباحث أحمد فاخر عاقل: "في التّواصل يكون سلوك عضوية ما بمثابة مثير لسلوك عضوية أخرى".[9]

وللدّلالة على أنّ التّواصل نسق للسّلوك أشار الباحث بوردوايستيل (Birdwhistell , R) أنّه "يمكن تعريف التّواصل إجمالا كنسق للسّلوك المندمج الّذي يضبط، ويصون، وينتج بذلك فرصة للعلاقات بين النّاس".[10]

وفي ارتباط بالتّفاعل الإنساني أشار الباحث موكييلي (Mucchielli . R) إلى أنّ "التّفاعل هو أولا تبادل بين أعضاء الجماعة، أو بين عضو والجماعة كلّها، فهو يفترض إذن تواصلا مصحوبا بفعل في الاتجاهين معا".[11]

وفي هذا الصّدد يكرس البّاحثون في علم النّفس الاجتماعي لمفهوم التّفاعل فقرات مهمة للدّراسة والتّحليل، وذلك لتوضيح أنّ هذا المفهوم يعكس فكرة مفادها أنّ مجموع العلاقات البين شخصية تعتبر "نتاجا للتّعليم الاجتماعي"،[12] وأنّ كل علاقة بين شخصية تفترض انخراط الأفراد في تفاعل "ضمن مكانات اجتماعية متميزة".[13]

وكتب الباحث ميد (Mead , G) في هذا الصّدد "أنّ المبدأ الأساسي في التّنظيم الاجتماعي هو التّواصل الّذي يؤدي إلى المشاركة مع الآخر، وهذا يتطلب أن يظهر الآخر استعداده وتكون هذه المشاركة ممكنة بواسطة نوع التّواصل الّذي يحققه الإنسان".[14]

ويؤكد كذلك أنّ هذه "المشاركة تكون سابقة منطقيا وأنطولوجيا عن التوّاصل اللّفظي، وأنّها تعبر عن الاتجاهات الاجتماعية والإنسانية الأساسيّة، ويمكن اختصارها في أهميتين هما التّعاون والتبادل".

إنّ مفهوم **التّفاعل** مفهوم أساسي في عملية التواصل البين شخصي، ومبدأ المشاركة الّذي تحدث عنه الباحث (Mead , G) ينحو أكثر نحو أجرأة هذا المفهوم، خصوصا في التّجليات الّتي حدّدها هذا الباحث في كل من التّبادل والتّعاون، والّتي

نعتقد في إمكانية تفعلها على المستوى الميداني (التّكوين والتّنشيط)، وذلك بإضافتها إلى تجليات أخرى لمفهوم التّواصل، انطلاقا من عمليتي الإدراك والارتجاع اللتان أشار إليهما سيلامي (Sillamy , N) في قاموسه، والّذي اعتبر فيه أنّ "التّواصل قبل كل شيء إدراك ينخرط في الاستخبار القصدي أو غير القصدي لمعلومات موجهة نحو الإعلام أو التأثير على فرد أو جماعة مستقلة، لكنّه لا يختزل في هذا الأمر فقط، لأنّ المعلومة حينما تبعث ستحدث أثرا على الفرد المتلقي، ورد فعل ارتجاعي على الشّخص الباعث الّذي سيتأثر بدوره ..."[15]

2.2. نظرة الاتجاه الأنثروبولوجي للتّواصل

هناك دعوة لدراسة التّواصل انطلاقا من الأنثروبولوجيا وذلك في إطار التّساؤل عن معنى التّواصل في سياقات أخرى، غير بث المعلومات بواسطة وسائل الإعلام، فحسب الباحث (Hymes,D) يجب إدخال في "الاقتصاد التّواصلي" للمجتمع كل الأعضاء المشاركين في نوايا تواصلية، وأيضا كل الوسائل الّتي يتوفرون عليها، وذلك للتكلّم مع الإنسان أو الحديث معه؛ لأنّه كما يقول، أنّ كل سلوك، بل كل شيء يمكن أن يكون تواصليا، لأنّ الإمكانيات والوسائل التّواصلية واسعة جدا، وأكثر دلالة من الاهتمام الّذي نوليه للكلام وحده.

إنّ دعوة هذا الباحث حسب (Winkin) تبقى مهمة للأسباب التّالية:

- دعا الباحثين في التّواصل إلى اعتماد الأنثروبولوجيا لما يمكن أن تقدمه من مقاربات نظرية ومنهجية متنوعة.

- أسس لحقل جديد يستحق أن ينتمي إلى علوم الإعلام والاتصال.

وتبقى هذه الاعتبارات مهمة جدا، ليس فقط لأنها تؤسس لحقل جديد بين الحقول المعرفية الأخرى، بل لأنّها تبيّن مدى تداخل مجموعة من الجوانب في سيرورة التّواصل، ومدى تعقدها وتشابك زوايا النّظر إليها، ممّا يجعلنا لا ننتهي من إعادة تعريف التّواصل، وإلى الرّجوع دائما في هذه العملية إلى التّناوب بين النّظرة الضيّقة والأخرى الأكثر شمولية.

لأنّ التّعريف الكلاسيكي قد حصر التّواصل في مجموع الأشكال النّوعية الضمنية لإرسال المعلومات، لكن الملاحظ أنّ العلوم التّواصلية، كسوسيولجيا الإعلام، وسيكولوجيا التّفاعلات، ومجموعة التقانة الحديثة، لا تكف عن استعمال "التّعريف التلغرافي" الكلاسيكي سواء في نفسها، لذلك يجب أن ينظر إلى التّواصل ليس كظاهرة نوعيّة محدودة، بل كمفهوم مندمج يمكن من التّفكير بطريقة أخرى في العلاقات بين الفرد والمجتمع، وبين المجتمع والثقافة.

3. المقاربة النّسقيّة

1.3. تعريف النّسق

يقصد بالنّسق، بالمفهوم العلمي، نظاما متكاملا ومترابطا من الأبنية النّظرية الّتي يكونها الفكر حول موضوع ما، مثل: تقديم نموذج رياضي يفسر ظاهرة فيزيائية؛ ويدل النّسق أيضا على مجموعة من القواعد والمبادئ والفرضيات والمسلمات والنّتائج الّتي تكون نظرية كلية مجردة، أو نظاما، أو جهازا علميا كليا، مثل: النّسق النيوتوني في الفيزياء، والنّسق الأرسطي في الفلسفة، إلخ..[16]

وقد تطورت نظرية الأنظمة وأعدّت بصفة خاصة من طرف (BERTALANFFY. L. Von, 1968)، وهي تقترح مقاربة شمولية للتّنظيمات الّتي تأخذ بعين الاعتبار التّعقيد المتنامي للمحيط (تسارع التغير التكنولوجي،...) بفعل تقارب نتائج العلوم المختلفة (البيولوجيا، العلوم الاجتماعية، الفيزياء...)، وتكمن الانطلاقة في العزل بطريقة منطقية لمكوّنات النّظام لدراستها على انفراد ثمّ إعادة تكوين النّظام لكي يتم أخذ نظرة شمولية عليه.

والدّراسة النّسقيّة تشبه التّنظيم بصورة نظام (مجمل الأجزاء المستقلة المنظمة من أجل هدف) معقّد مفتوح على بيئته، وحسب (FORRESTRE,1961) النّظام التّنظيمي هو شيء ملموس، منتهي، منظم ناشط ومتناسق، ومتكوّن من أنظمة ثانوية لتجسيد أعمال مطلوبة من طرف مشروع المؤسسة، والوصول إلى أداء نوعي من أجل البقاء.

والمنظمة تربطها علاقات مع أجزائها الخارجية (تصدير، توريد)، والّتي تسمح لها أن تتغذ (الحصول على متعاملين...) لكي تحقق تحوّلات (إنتاج مواد وخدمات) ذات قيمة مخلوقة تفوق الموارد المستهلكة، ومن أجل فهم النّظام التّنظيمي، يجب علينا أن نهتم بالعلاقات الموجودة بين الأنظمة الثّانوية.

- وتذهب الاتجاهات الحديثة في هذه النّظرية إلى أنّ هناك نوعين من الأنساق

- **النّسق المفتوح:** وهذه النّظم تتفاعل وتؤثر وتتأثر بالبيئة المحيطة ومن أمثلتها المؤسسات الّتي تعد بمثابة تفاعل دينامكي مع البيئة الخارجية، وهذا التّفاعل يتم في جميع الأجزاء الدّاخلية المؤلفة للنظام.[17]

- **النّسق المغلق:** وينظر هذا الاتجاه إلى المؤسسة على أنّها نسق مغلق، وأنّ الاهتمام فيها يرتكز على الوظائف الدّاخلية دون الاهتمام بالقوى الخارجية، فهي مهمة لتحقيق أهداف معينة، ويعنى بنجاحها مختلف الأبنية الدّاخلية والقرارات التّنظيمية الصّناعية.[18]

- **القراءة النّسقيّة**

هي طريقة تستند على الوصف وتستمد جذورها من المقاربة النّسقيّة الكليّة، والّتي تعتبر عن تصوّر شامل لواقع الظواهر أو الأحداث أو الأشياء كأنساق يسمح بكشف بنيتها ووظيفتها، انطلاقا من مجموعة من الأفكار والمعتقدات والافتراضات، للتّعرّف على الاتصالات وطبيعة العلاقات بين عناصر النّسق والقواعد الّتي تحكم نظامه وآليات تكيّفه مع السّياق العام الّذي يتفاعل معه، والكشف عن هويته.

- **النّموذج النّسقي**

يرجع الفضل في طرح هذا المصطلح إلى ل.ف.برتلانفلي وإلى إ.مورين الّذي تناول الخصائص الأكثر تمييزا لهذا المصطلح، والّذي أضاف إلى هذا النّموذج صفة التّعقيد فأصبح يعرف النّموذج النّسقي بالنّموذج المعقد، والّذي يحتوي على النّظام ordre والفوضى في نفس الوقت، وعلى التّوازن واختلال التّوازن، وعلى السّويّ والمرضيّ، والمعزول والمدمج ..الخ، وهي مدركات ومفاهيم متناقضة ومتكاملة في نفس الوقت.

2.3. نشأة المقاربة النسقية

ظهرت المقاربة النّسقية بمدرسة بالو ألتو، وجدت مصدرها في التّوجه النّظري والأسس الابستيمولوجية الأبحاث غريغوري باتيسون،[†] ومجمل اكتشافات باتيسون، والّتي امتدت من سنة 1949 إلى غاية 1962، تأثرت كثيرا بمختصين في الرّياضيات أمثال ج.نيومان ون. واينر ممهدي علم الإيحائية والبيولوجي فون برتلنفلاي صاحب نظرية العامة للأنساق وعالم الرّياضيات والفيلسوف ب. روسل مؤلف نظرية الأنماط الموضوعية، ولطبيب الأمراض العقلية ماريكسون مؤسس التّنويم المغناطيسي، كما اقترب غريغوري باتيسون من دجاكسون وطوّر معه فكرة نماذج الاتصال الّتي تحدّد بشكل كبير السلوكيات الإنسانية.

نشأت المقاربة النّسقية في بداية الخمسينات بالولايات المتّحدة وطبقت بفرنسا منذ السّبعينات، وتعدّ اتجاه جديد وواعد للبحث وللعمل، ولقد استعملت هذه المقاربة كطريقة في عدّة تطبيقات.

وترتكز المقاربة النسقيّة على فهم ملموس لمجموعة من المفاهيم مثل النّسق، التّفاعل، الأفعال الرّجعية، الضّبط، التّنظيم، الهدف، رؤية شاملة، تغيّر، تطوّر ..الخ

إنّ ارتكاز الباحثين أو أصحاب القرار على مستوى المؤسسات المختلفة على المقاربة النّسقية كطريقة عمل أو بحث يتطلّب منهم مجهود كبير في تعلّم المفاهيم المرتبطة بالمقاربة، واستيعابها والاتفاق على معناها كخطوة أولى قبل مباشرة العمل، وتعدّ هذه المقاربة إبحار سعيد في أجواء معقدّة.

قدّمت المقاربة النّسقيّة تصوّر شامل للواقع فاكتسحت ميادين وعلوم عديدة وممارسات خدماتية مختلفة، ولقد أسهمت هذه المقاربة كثير في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتعتمد على أسس مهمة كالسببية الدّائرية، وعدم القدّرة على التنبؤ،

[†] عالم في الانثربولوجيا والايتولوجيا، اكتسب شهرة بواسطة معارضته لنظرية داروين لتطور الكائنات، وأكدت أبحاثه أن سلوكيات الفرد محددة بردود أفعال المحيط.

وعدم الاستقرار والواقع المبني عكس الفكر التّحليلي، والّتي ترتكز على السّببيّة الخطيّة والقدرة على التّنبؤ بالاستقرار والواقع الموضوعي.

3.3. النّماذج النّسقيّة (modèles systémiques)

نستعرض فيما يلي النماذج النّسقية:[19]

1.3.3. النّموذج السّوسيومتري لمورينو (Morino)

يقدّم هذا النّموذج تمثيلا "لا شكليا" لنسق مرسوم للعلاقات داخل الجماعة من خلال نوع من القصديات (الحب/الكراهية)، ويؤكد (Mucchielli) "أنّه لأوّل مرة ومن خلال هذا النموذج تظهر لنا "البنية" كمعطى للعلاقات الّتي ينسجها الفرد من خلال تواصله مع الآخرين، ويضيف أنّ الهم الأساسي للباحثين في ذلك الوقت (الخمسينات والسّتينات) تمركز حول "البنية العاطفيّة للجماعات والمكانات" الّتي يتبوّؤها أعضاء هذه الجماعات.

2.3.3. النمّوذج التّعاقدي (modèle transactionnel)

لم يعد الأمر متعلّقا بالمحتوى وحده، ولكن بالشّكل العام للسيرورة التّواصلية، لذلك اهتم الباحثون انطلاقا من هذا النّموذج بدراسة أنواع العلاقات والتّواصلات الضّمنية الّتي تتأسس داخل العلاقات البين شخصية، لأنّ التّحليل "التّعاقدي" يمكّن من تحديد أنساق التّفاعلات في إطار حلقات تسيير "كألعاب تكرارية".

وهذا ما يؤكده (Watzlawick) في تحليله النّسقي الخاص بالقاعدة المتعلّقة بلعب الأدوار والنّسق التّكراري، ويضيف (Mucchielli) أنّ هذا النّموذج من التّحليل يحيل على السيكولوجيا التّعاقدية، وذلك بملاحظة التّواصل انطلاقا من مستويات مختلفة، وهي مستوى معياري (العائلي)، مستوى عقلاني (الرّاشد)، مستوى عاطفي (الطّفل).

حيث أنّ هذا النّموذج يوضح كيف أنّه في سيرورة التّواصل توجد تعاقدات واضحة ومقبولة اجتماعيا، وأيضا تعاقدات خفيّة مرتبطة بالدّوافع الفردية العميقة.

3.3.3. النّماذج التّفاعلية (modèles interactionnistes)

يعتبر التّواصل في هذا النّموذج سيرورة لمشاركة الفرد في نسق من التّفاعلات الّتي تربطه بالآخرين، حيث نجد أنّ مدرسة "بالو ألتو" هي الّتي اهتمت بأنساق التّبادلات وبالتّواصل التّناقضي (communication pradoxale).

4.3.3. نموذج "الجوقة" (الأركسترا) modèle orchéstral

بهذا النّموذج يعرف التّواصل كنتاج جماعي لجماعة تعمل وفق تصرفات الزّعيم، وأنّ الكلّ يشارك في التّواصل كما يشارك جميع العازفين في الأوركسترا، ويكمن المشكل هنا في كيفية مرور التمفصل بين (الألعاب les enjeux) الأداءات الفردية لكي نصل في الأخير إلى نتاج جماعي.

وتؤكد بهذا النّموذج أنّه لابد من تسجيل نقطة أساسية في سيرورة التّواصل هنا، وهي أنّ المتفرجين يشاركون أيضا في نسق الأركسترا، وذلك بالتّفاعل معها (التّصفيق مثلا).

4.3. النماذج البنائية (modèles constructivistes)

تتضمن النّماذج البنائيّة ما يلي:[20]

1.4.3. نموذج التّضخم النّصي (hypertexte)

يعتمد هو الآخر على استعارة "تضخم النّص" حيث يعني أنّ هناك مجموعة من الأنساق التّفسيرية والتّعليقية الّتي يقوم الأفراد بربطها بنص أصلي، ويجعلونها تلتصق به وتحدّد معناه النّهائي، ويشير الباحث هنا إلى الطّريقة الّتي تعتمد التقانة الحديثة في تحليل ومعالجة النّصوص، مثل "الانترنت" و"السيدروم".

ويعتبر التّواصل هنا نقاشا يمر عبر النّص "الكامن - الخفي"، ويتم بواسطة فاعلين لا ينتمون إلى بنية اجتماعية محدّدة، وأنّ اتجاه النّقاش لا يحدّد في الانطلاق، لكنّه ينشأ عبر قراءة بعض من التّأويلات حول ذلك النّص.

2.4.3. النّموذج الموضعي (الموقعي) modèle situationnel

ينظر إلى التّواصل هنا انطلاقا من "سيرورات"، ويحاول هذا النّموذج أن يكشف عن مختلف سياقات تلك السّيرورات الّتي يكون فيها التّواصل ضروريا كسياق التموضع النّسبي، والآخر المرتبط بالنّوايا، وبالأفعال المؤسسة لضغوطات وضعياتية، والسّياق الزّمني ورهانات الفاعلين، إلخ ...

إنّ المعنى النّهائي للتّواصل بهذا الشّكل هو تركيب لمختلف الدّلالات المرتبطة بالسّياقات، لأنّ هذه الأخيرة تساعد على بناء معنى التّبادل، وأنّ المعنى والسّياق يقومان على هذا التّبادل أيضا.

لفهم هذه النّماذج لابد من العودة إلى السّياق التّاريخي الخاص بها، لأنّ لكل مرحلة اهتماماتها حول التّواصل، وبالتّالي لها نماذجها، وأيضا أنّ لكل مرحلة رهانات تواصلية تتغير هي الأخرى عبر الزمن، وهكذا فإن كان رهان النّماذج الوضعية هو تحليل أثر التّواصل ونجاعته، فإنّ النّماذج النّسقية قد استهدفت تحليل استمرارية وتغيير أنساق التّواصل، حيث نجد هذا الاهتمام في نماذج التّحليل التّعاقدي والتّحليل النّسقي، وكذلك النّموذج السوسيومتري، وأنّ الاهتمامات المشتركة للنّسقين الوضعيين استهدفت بناء "المعنى المشترك" بين الفاعلين في التّواصل.

وأخيرا يمكن القول بأنّ هذه النّماذج تسمح بتسليط الضوء على التّأطير النّظري كسيرورة التّواصل، سيرورة مركبة يدخل في تكوينها مجموعة من العوامل الفردية والجماعية، المعرفية والعلائقية ...

4. مدرسة بالو ألتو (PALO ALTO) والفعل التّواصلي

1.4. السّيرورة التّواصليّة وأبرز المبادئ

إنّ المبادئ الأساسية (19) الّتي تعتمدها المقاربة النّسقيّة انطلاقا من مدرسة بالو ألتو في نظرتها إلى السّيرورة التّواصليّة، على الشّكل التّالي:[21]

إنّ التّواصل ظاهرة تفاعليّة، حيث أنّ الوحدة الأساسية لهذه الظّاهرة لم تعد هي الفرد (كما كانت تقدّمها السّيكولوجيا التّقليدية)، بل هي العلاقة الّتي تنشأ بين

الأفراد (العائلة، الفريق، التنظيم ...)، والّتي تعد استجابة لتدخل الآخر، لكنّها لا تشكل من جهتها مثيرا سيرتد له الأخر، لأنّ التّواصل سيرورة دائرية تحدث في كل رسالة عملية ارتجاع من طرف المتلقي.

والتّواصل لا يختزل في الرّسالة اللّفظيّة، لأنّ أي سلوك اجتماعي له قيمته التّواصليّة، وأنّه في أية وضعية تفاعليّة "لا يمكننا ألاّ نتواصل"، لأنّ حركات الوجه والاتجاهات (المواقف)، وأيضا التّصرفات تبعث رسائل (حتّى الصّمت يمكن أن يعبر عن الخجل، أو التّحفظ، أو الاستياء أو الرّضا...)

ويحدّد التّواصل داخل السّياق المسجل فيه، وقد يتعلّق هذا السّياق بالعلاقات الّتي تربط الأفراد الّذين لا يتواصلون (علاقة الغرباء)، العلاقة بين زملاء العمل، بين الآباء والأطفال..الخ، داخل الإطار الّذي يهتم فيه التّفاعل والمكانة الّتي تربطهم بالمحاور، لأنّ السّياق إطار رمزي حامل لقيم وقواعد ونماذج وطقوس للتّفاعل.

ونشير إلى أنّ كل تواصل يتضمن مستويين من الدّلالة، إنّه لا يحيل فقط محتوى إعلامي (أحداث، آراء، أحاسيس، تجارب المحاورين)، لكنّه يعبر عن شيء ما في العلاقة التي تربط بينهم، وأنّ العلاقة بين المتحاورين تتأسس حسب نموذجين كبيرين وهما النّموذج التّماثلي (modèle symetrique) والنّموذج التّكاملي (modèle complémentaire).

حيث أنّ النّموذج الأوّل يحدّد العلاقة التّعادليّة حيث تكون سلوكات المتحاورين انعكاسية (en miroir)، أمّا في النّموذج الثّاني يعتمد المتحاورون سلوكات متباينة تحاول التّوفيق بين الطّرفين، ويمكن للعلاقة التّكاملية أنّ تكون تراتبية، بمعنى أن تأخذ مكانة "عليا" أو مكانة "دنيا" (رب العمل، عامل).

والفرضية الأخيرة الأساسية الّتي تنطلق منها هذه المدرسة هي أنّ معظم أشكال الأمراض العقلية، يمكن أن تعود إلى اضطرابات أو اختلال في التّواصل، حيث أنّ الاضطرابات العلائقية هي الّتي يمكن أن تشرح الأعراض المرضية عند الفرد، وأنّه إذا أردنا أن نتدخل لعلاجها، يجب أن نغيّر السّياق العلائقي الّذي أحدثها.

وفي هذا الإطار يضيف ونكن (Winkin) عشرين (20) مبدءا أخرى لهذه المدرسة، تنسجم مع الّتي أوردها ليبيانسكي (Lipiansky) وتغنيها:[22]

- إنّ التّواصل ظاهرة اجتماعية، لأنّ كل بث لرسالة يندمج في منظومة أكثر اتساعا مقارنة مع اتساع الثّقافة، وهذه المنظومة تكون مجموعة القوانين والقواعد الّتي تصون التّفاعلات والعلاقات في إطار من الضّبط والتّوقعية.
- إنّ المشاركة في التّواصل تمر عبر عدد من الأشكال، لفظية، غير لفظية، يمكن أن تكون موضوع مقاربات عديدة (kénisique, haptique, paralinguiste, proxémique...)، لأنّه في غالب الأحيان تكون الأنشطة التّواصلية أنشطة مراقبة وتأكيد واندماج.
- إنّ البينة والغرضية لا تحدّد التّواصل، لأنّه حينما يتحدّث شخصان بلغة ما، إنّهما يشتركان في نسق كان موجودا قبلهما ويستتبعهما، بمعنى آخر أنّ الفعل المتحقّق من "الهنا والآن" من التّفاعل ليس إلاّ حيزا من الزّمن ضمن حركة أكثر اتساعا.
- إنّ التّواصل الاجتماعي يشبه صورة الأوركسترا، حيث أنّ أفراد ثقافة ما يشاركون في التّواصل كما يشارك الموسيقيون في الجوقة، لكن دون رئيس، ودون توزيع موسيقي، لأنّ البعض يرشد الآخر ويكمله.
- إنّ الملاحظ منخرط بالضرورة في الأكسترا، رغم أنّه ينتمي إلى جماعة أخرى، من هنا يمكن القول أنّ الطّريقة الوحيدة لدراسة التّواصل هي الملاحظة بالمشاركة حسب الطريقة الأنثروبولوجية، وذلك بالاعتماد على المنهج الإنثوغرافي الّذي يستند على ثلاث قدرات (القدرة على الملاحظة، على التّواجد مع الآخرين، على الكتابة)، وأنّ هذه الثّلاثية يمكن تطبيقها في أي "ميدان"، في أي مكان، في أي جماعة اجتماعية.

2.4. اتجاهات المقاربة النّسقية

يعود الفضل في ظهور المقاربة النّسقيّة بمدرسة بالو ألتو إلى غريغوري باتيسون والّذي انصبت أبحاثه على مدى تأثير المتبادل للقنوات العلائقية والاتصالية على الأفراد، وظهرت له على أثرها عدّة مؤلفات سنة 1927 من أهمها التّنظيم الذّاتي السّلوكي، التّغذية الرّجعية، أساليب التّواصل، التّناقض في التّواصل، الفروق على

مستوى المنطق كما صدرت له سنة 1956 مؤلفات أحدثت انعطافا مهما في المقاربة النّسقية ومن بينها ما وراء الاتصال والتّناقض المزدوج (الفصام).

3.4.انتقادات المقاربة النّسقيّة

ترى المقاربة النّسقيّة أنّ أي تغيير يطرأ على عنصر من العناصر المكوّنة للنسق يؤدي إلى تغيير الكل، فبالرغم من تنبؤها بما سيطرأ من تغيير للنسق إذا حدث تغييرا في أحد أجزاءه إلاّ أنّها لا يمكنها توقع مكان ووقت وطبيعة التغيّر.

تتميّز المقاربة النّسقيّة بالتّعقيد وبالشّكوك وبالتّناقضات ممّا يستدعي على المختص في المقاربة النّسقيّة أخذ الحيطة والحذر للابتعاد عن الجرأة تفاديا لتضييع ما تمّ اكتسابه، وعن الاحتراس الشّديد الّذي يضيع من خلاله فرصة التّعلم واكتساب المهارات، ويشير في هذا الصدد الباحث إ.مورين إلى أنّه "يوجد دائما شكوك وتناقضات أخلاقية، حتّى بلوغ الجرأة مع الخطر بتضييع كل شيء، أو الاحتراس، مع الخطر لعدم ربح أي شيء، هنا كذلك يجب الاختيار أو الرّهان".[23]

إنّ تعدّديّة المعاني والاختيارات تعدّ من بين امتيازات المقاربة النّسقيّة، فالفرد كثيرا ما يكون إزاء الظّاهرة أمام تساؤلات لها إجابات واضحة تسهل القرار فيها، وتساؤلات أخرى يصعب التّقرير فيها، أو تساؤلات بدون إجابة واضحة تسهل القرار فيها، أو تساؤلات بدون إجابة أو ذات إجابة غير واضحة وغير مقنعة يتطلب فهمها الاحتراس من بناء المعنى الخاص بالفرد، خوفا من الاعتبارات الذّاتية للمعنى أو الميل التّام، إنمّا للمعنى "الموضوعي" أو للمعنى "الذّاتي" للظّاهرة أو الموقف.

على الرّغم من الصلّة الوثيقة للمعاني بالموضوع، إلاّ أنّها غير كافية لاختيار المعنى المناسب للموضوع، والقدرة على توظيفه إجرائيا، فتعدّد المعاني يستوفي شروط فهمها واختيار ما هو أنسب للسّياق، إذن قدرة الفهم وقدرة الاختيار شرطان أساسيان وإلاّ تعدّد المعاني يصبح مأزق وموضوع صراع.

بقدر ما تكون العلاقة الارتباطية والشّكوك عمليات مهمة للاستثمار بقدر ما تكون مشكلة تكبح زمام المبادرة أو تدفع بالمتدخل إلى مغامرة ذات توقعات سيّئة، ولذا فعلى

المتدخل أن يتحلّى باليقظة بشكل مستمر لتقييم وضعيات واستراتيجيات التّدخل المتخصّصة.

تتميّز المقاربة النّسقية بتعدّديّة المجازفات المتناقضة، وتعقّد أنساق المعرفة والقرارات، وعدم القدرة على التّنبؤ بتطوّر الوضعيات، وعشوائية التّوقعات، زوتدخل العوامل الغريبة عن السّياق ممّا يجعل كل قرار عبارة عن رهان.

4.خاتمة

ظهرت المقاربة النّسقية انطلاقا من الفكر النّسقي والّذي كان الأنسب لتفسير بعض الظواهر الاتصالية من الفكر التحليلي، فكان له الأثر الكبير في التّحوّل الرديكالي لإدراك الواقع بعدما جمع ما بين الاتجاهين وربط الظّاهرة بسياقها الّذي تحدث فيه.

وقد كان لمدرسة بالو ألتو الفضل في احتضان هذه المقاربة الّتي وجدت مصدرها في التّوجه النّظري والأسس الابستيمولوجية لأبحاث باترسون، وكانت نتيجة لالتقاء عدّة علوم ارتكزت المقاربة النّسقية على عدّة نظريات منها نظريّة النّسق العام والّتي تتضمن مجموعة من المفاهيم كمفهوم النّسق، المماثلة، طبيعة الأنساق وأهمية الطّاقة، السببيّة الدّائرية وآلية الارتجاع، التّوازن والتّغيير ،بالإضافة إلى نظرية الاتصال والنّظرية البنائية الّتي أولت أهمية كبيرة لمدى تأثير ذاتيّة الفرد وادراكاته وواقعه المعاش في بناءه لواقع الظّاهرة.

5. الهوامش

[1] La dynamique des groupes restreints, ANZIEU, D et MARTIN ,J.Y, P.U.F, Paris, 1986, (p 589).

[2] Les fondements de la communication humaine, DEVITO et autres, G. Morin, Canada, 1993, (p 5).

[3] Micro Robert, ALAIN, R , Montréal , Canada , 1988, (p241).

[4] Les réseaux de communication, COOLEY, C in Mucchielli , R, E.S.F, Paris, 1988 (p33).

[5] الشباب ومشكلات الاندماج، المصطفى حدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1995، ص (21).

[6] Mieux communiquer pour mieux agir, AFILAL, R, Psychologie de l'éducation, Revue n°1 , Najah El jadida , Casablanca , 1996, (p100).

[7] معجم المصطلحات الاجتماعية، خليل أحمد خليل، سلسلة المعاجم العالمية، بيروت 1995، (ص 10).

[8] Vers une anthropologie de la communication, WINKIN, Y, Revue : Sciences Humaines, H.S, N° 16, 1988, (p21)

[9] معجم علم النفس، أحمد فاخر عاقل، إ. ف. ع، 1988، (ص 26).

[10] Systèmes de communication, BIRDWISTELL, R in E.SCHEFLEN, cité par WINKIN,

[11] La dynamique des groupes, MAISONNEUVE, Q.S.J , P.U.F , Paris 1968 (p51)

[12] la dynamique des groupes, MUCCHIELLI , R , ES.F , 1980 , (p69)

[13] المنظور النفسي الاجتماعي لدينامية الجماعة في تنشيط الجماعات، عبد الكريم بلحاج، مجلة سيكولوجية التربية العدد الأول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999 (ص 59).

[14] L'esprit, le soi et la société, MEAD, G, 1934 , (p215).

[15] Dictionnaire de la psychologie, SILLAMY, N, Larousse, Bordas, Paris, 1983, (p59).

[16] نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الأنساق المتعددة)، جميل حمداوي، ww.alukah.net كتاب الكتروني، ص:07_09.

[17] نظريات الإدارة والأعمال دراسة ل201 نظرية في الإدارة و ممارستها ووظائفها، رعد حسن الصرن، دار الرضا للنشر، دمشق، سوريا،2004، ص:94.

[18] مدخل إلى علم الاتصال، منال طلعت محمود، دط، المكتب الجامعي الإسكندرية ،2002، ص:111.

[19] Les modèles de la communication, Mucchielli , A, in Cabin, P (coordonné par), la communication états des savoirs " éd. S.Humaines , 1998 (p p65-78)

[20] ibid (p72)

[21] Pour une psychologie de la communication, LIPIANSKY,E.M, in CABIN , 1998 , op.cit (pp55.56).

[22] Introduction de l'ouvrage (The natural history an interview), BATESON, G, in WINKIN, (pp 119-123).

[23] براديغم التعقيد كرهان لاستشراف المستقبل في فكر إدغار موران، بن ماضي فاطمة الزهراء، رضا شريف، مجلة المحترف لعلوم الرياضة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 08، العدد 04، 2021، ص206.